القاضي إياس
الذي بهر بذكائه، وفراسته الناس!

قيل لمعاويةَ بن قُرّة والد إياس :

كيف ابنُك لك ؟

فقال : «نعم الابن !.. كفانى أمرَ دُنياىَ ، وَفرّغنى لآخرتى» .

هذا هو إياس ! وهذا هو أبوه معاوية !

أما جدُّه «قرة» ، فقد كانت له صحبة مع النبى ﷺ . وقاضينا «إياس» هو صاحب الحِكَم الصائبة ، والأحكام الماضية .

إنه قاضى البصرة العلاّمة ... أبو واثلة الذى كان يضرب به المثل فى الذكاء ، والدهاء ، والعقل .

وسوف نعيش معه لنضم خبرته إلى خبرتنا ، وعمره إلى أعمارنا فى تلك الفترة التى عاشها منذ ميلاده فى سنة ٤٦هـ إلى أن لقى ربه فى سنة ١٢٢هـ بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس بذكائه وعدله؛ فتعال إليه ، وإلى قصص من حياته ..

القاضى إياسُ

ابنُ معاويةَ بن قُرّة المزنى أبو واثلة (٤٦ - ١٢٢هـ)

قاضى البصرة ، وأحد أعاجيب الدهر فى الفِطْنَة والذكاء !

يُضرب المثل بذكائه ، كان صادق الحَدْس [١] مُلْهَمًا، وجيهًا عند الخلفاء ! ، وكان أحد العقلاء الفضلاء الَدّهاة !

(١) الحَدْس : الفراسة ، وإدراك الشئ إدراكا مباشرا .

قالوا فى الأمثال : «أَزْكَنُ من إياس» والزّكانةُ ، أو الفراسة ، أن يَظُنَّ الشخصُ ، فيصيب !

● ومن نوادر زكنه وفراسته : أنه رأى بقايا «علف بعير» فقال : هذا بعير أعور !

فنظروا فإذا هو كما قال !

فقيل له من أين قلتَ ذلك ؟ فقال : لأنى وجدت اعتلافه من جهة واحدة .

● ومن نوادر زكنه : أنه رأى قوما يأكلون تمرا ، ويلقون النوى متفرقا ، فرأى الذباب يجتمعن فى موضع من النوى ، ولا يقربن موضعا آخر ، فقال إياس : إن فى هذا الموضع حَيّة ، فنظروا ، فوجدوا الأمر كما قال !

فقيل له : من أين علمت ذلك ؟

قال : رأيت الذُّبابَ لا يقربن هذا الموضع ، فقلت : تَجِدُنَ ريحَ سُمّ ، فقلت : حَيّة !

● ومن نوادر زكنه : أنه نظر يوما إلى ديك ينقر ولا يُقَرقر [1] !

فقال : هذا هَرِمٌ !

فقيل له : كيف علمت ذلك ؟

فقال : لأن الشابّ من الدِّيَكَة ، إذا وجد حَبّا نقره، وقرقر لتجتمعَ الدجاجُ إليه !

● ومن نوادر زكنه : أنه رأى جارية فى المسجد ، وعلى يدها طبق مغطىً بمنديل ، فقال: معها جراد [2]!

---

(١) لايقرقر : لايحدث صوتا .

(٢) وأكله كالسمك حلال .

فكان كما قال !

فلما سئل : كيف عرفت ذلك ؟!

فقال : رأيته خفيفا على يدها !

هذا هو إياس ، فتعال نصاحبه فى رحلة جميلة ؛ فما أشد حاجتنا إلى أمثال إياس !

إن عصرنا هذا هو عصر الذكاء والفطنة .. المجال فيه لصاحب العين البصيرة ، والعقلية المتفتحة ، والشخصية اللّماحة ، الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع !

ويقرأ الوجوه ، ويعرف الأسرار في العيون ، ويكشف ما يضمره المخادعون من خلال فلتات اللسان ، فما أضمر أحد شيئا إلاظهر في فلتات لسانه .

ذكاءٌ مبكِّر!

● دخل إياسٌ الشامَ ، وهو غلامٌ صغيرٌ ، فقدَّمَ خصماً له إلى بعض القضاة!

وكان الخصم شيخاً ، فصال عليه إياس بالكلام !

فقال له القاضى : خَفِّض عليك ؛ فإنه شيخ كبير!

قال إياس : الحَقُّ أكبر منه !

قال القاضى لإياس : اُسكُتْ !

قال إياس : فمن ينطقُ بحُجّتى ؟!

قال القاضى : ما أراك تقول حقًا !

وهنا قال إياس : لا إله إلا الله [1] . أحقًا هذا أم باطلا؟!

(١) ولا إله إلا الله كلمة حق لا يختلف عليها اثنان .

فبُهتَ القاضى ، وأسرع إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ، وأخبره بما كان !

فقال عبد الملك : اقض حاجتَه الساعة ، وأخرجه من الشام حتى لا يُفْسِدَ أهلَها علينا [1] ! ويقول التنوخى فى روايته : إنه عزل القاضى وولاه مكانه !

إياسٌ وأخوه !

● قال إياس : كان لى أخ ، فقال لى وهو غلام صغير من أى شىء خُلقنا ؟

قلتُ : من طين !

فتناولَ مَدَرة (قطعة من الطين اليابس) ، وقال : مِن هذا ؟

قلتُ : نعم ، خلق الله آدمَ من طين !

قال : فيَسْتَطيعُ الذى خَلقَنَا أن يُعيدنا إلى هذا الذى خُلِقْنَا منه ؟

قلت : نعم .

قال : فينبغى لنا أن نخافه [2] !

متى ينقطع الميلاد !

● سئل إياس بن معاوية :

متى ينقطع الميلاد ، فلا يكون ميلاد ؟

قال : إذا استكملَ أهلُ الجنة عدَدَهم الذى قضاه اللهُ -عز وجل - إذْ عَرْشُه على الماء ! واستكمل أهلُ النار عدَدَهم الذى قضاه الله - عز وجلّ -إذْ عَرْشُه على الماء !

فعند ذلك ينقطع الميلاد ، فلا يكون ميلاد !

(١) زهر الآداب الجزء الأول /١٩٩ .

(٢) نثر الدر للآبي ج ٥/٢٣٦ .

فيه أربع خصال !

قيل لإياس بن معاوية : فيك أربع خصال : دَمَامَةٌ ، وكثرةُ كلامٍ ، وإعجابٌ بنفسك ، وتعجيلُك بالقَضَاء !!

فقال : أما الدّمَامة ؛ فالأمر فيها إلى غيرى !

وأما كثرة الكلام ، فبِصَوابٍ أتكلمُ ، أَمْ بخطأ ؟ قالوا : بصواب !

قال : فالإكثار من الصواب أمثل ! (أحسن وأفضل) .

وأما إعجابى بنفسى ، أفيعجبكم ماترون منّى ؟ قالوا : نعم.

قال : فإنى أحق أن أُعْجَبَ بنفسى!

وأما قولكم : تعجل بالقضاء ، فكم هذه ، وأشار بيده خمسة، فقالوا : خمسة .

فقال : عَجِلْتم ؛ ألا قلتم : واحد ، واثنين ، وثلاثة، وأربعة ، وخمسة ؟!

قالوا : ما نعد شيئا قد عرفناه !

قال : فما أَحْبِسُ شيئًا قد تبيّن لى فيه الحُكْمُ .

- **يكلم الناس بنصف عقله !**

قال إياس بن معاوية : أنا أكلم الناس بنصف عقلى [1] ، فإذا اخْتَصَم إلى اثنان جمعتُ عقلىَ كلَّه .

- **من لا يعرف عَيْبَه فهو أحمق !**

قال إياس بن معاوية : من لا يعرف عيبَه فهو أحمق !

---

(١) لا أحتاج إلي بذل جهد عقليّ وتركيز فكر ، كما ينبغى أن أكون عليه عند التقاضي .

قالوا : يا أبا واثلة : ما عيبُك ؟

قال : كثرةُ الكلام !

● فِراسَة !

قال سَلْمُ بنُ قُتيبة :

لقينى إياسُ بنُ معاوية ، وأنا لا أعرفه ، ولا يعرفنى ، فقال : أنت ابنُ قتيبة ؟!

قلت : نعم .

قال : عرفتك بشبه عمك عمرو بن مسلم !

قلت : وأين أنا من عَمّى ، وعَمّى ضخْم أمْعر[1] ، وأنا آدم[2] لطيف الجسم !

فقال : ليس القياس على هذا[3] .

كَيْفَ وُلِّى القَضَاء ؟

كتب عُمَرُ بنُ عبد العزيز الأموى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فى أيام خلافته إلى نائبه بالعراق ، وهو عدىّ بن أرطاةَ:

أن اجمَعْ بين «إياس بن معاوية» و «القاسم بن ربيعة» فولّ قضاء البصرة أَنْفَذَهُما !

فجمع بينهما ، فقال له إياس : أَيُّها الأمير ؛ سَلْ عنى وعن القاسم فقيهى المِصْر : الحسنَ البَصْرِىّ ، ومُحمدَ بن سيرين.

وكان القاسم يأتيهما ، وإياس لا يأتيهما !

---

(١) الأمعر : الذي علَتْه صُفْرة . (٢) الأسمر .

(٣) هناك أمور معنوية ينبنى عليها القياس ، ومرجعها إلى الذكاء والفراسة لا إلى مجرد الشكل واللون !

فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به ، فقال له : لا تسأل عنى ولا عنه ، فـــو الله الذى لا إله إلا هو : إن «إياسَ بنَ معاوية» أفقه منى ، وأَعْلَمُ بالقضاء !

فإن كنتُ كاذباً فلا يحلُّ لك أن تُوَلِّينى وأنا كاذب !

وإن كنتُ صادقاً فينبغى لك أن تَقْبَلَ قَوْلى !

فقال له إياس : إنك جئت برجل أَوْقفته على شَفيرِ جهنم ، فنجَّى نفسه منها بيمين كاذبة ، يستغفرُ الله منها ، وينَجو مما يخاف !

فقال عدى بن أرطاة : أَمَا إذْ فَهمتَها ، فأنت لها ، واستقضاه [1] !

خِبْرَةٌ بفَنّ التَّقَاضِى !

كان إياس يقول : مَن أراد «الصُّلح» فعليه بحُمَيْدٍ الطويل ، وتدرون ما يقول ؟

يقول لهذا : انْقُصْ قليلاً .. ، ولهذا : زِدْ قليلا. فينقطع الأثر بذلك !

ومن أراد «الفُجورَ» ، فليأخذ «صالحَ بن خلاف» ، وتدرون ما يقول للمدّعَى عليه ؟

يقول للمدّعَى عليه : اجْحدْ ما عليك !

ويقول للمدّعِى : ادَّعِ ماليس لك !

فيزداد الخلافُ بينهما ! فأين حُمَيْدُ الطويل ليرعى السلام فى عصرنا ؟!

(١) طلبه للقضاء ، ويقول النحاة : الهمزة والسين والتاء ، فى أول الفعل للطلب مثل : استفهم : طلب الفهم .

هذا نُباح كلب مشدود !

قال الجاحظ : إن إياسَ بنَ معاوية حَجّ ، فسمع نُباحَ كلب ، فقال : هذا كلب مشدود !

ثم سمع نُباحه ؛ فقال : قد أُرسل ، وفُكّ وَثاقُه !

فأسرعوا إليه ، فإذا هو كما قال !

فقيل له : من أين علمت !

قال : كان نُباحهُ ، وهو موثَق يُسْمَع من مكان واحد ، ثم سمعتهُ بعد ذلك يقرُبُ مَرّة ، ويَبْعُدُ أخْرى!

هذه عَذْرَاء !

ومِمّا يدلّ على فِطْنَة إياس وذكائه أنه كان يمر بسوق المدينة، وفجأة حدثَ ما أَوْجبَ الخوفَ والذُّعْرَ بين الغادين والرائحين ، فوقَعتْ عينُه على ثلاث نسوة لا يعرفهن ممّن رَوّعَهن الحادث المفاجئ!؛ فأشار إليهن وقال : هذه ينبغى أن تكون «حَامِلا»!

وأشار إلى الثانية وقال : أما هذه فهى «مُرضع» !

وأما الثالثة ، فهى مازالت «عذراء» !

عَجِبَ الجميع وقالوا :

من أين لك هذا يا إياس ؟!

فقال : عندَ الخوفِ لا يَضَع الإنسانُ يدَه إلا على أعزّ شئ لديه ، أو يخاف عليه!

ورأيت الحاملَ قد وضَعَتْ يدَها على «بَطْنها» فكان ذلك دَليلاً على حَمْلِها !

أما الثانية ، فقد وضعت يدها على «ثَدْيها» فعلمتُ أنها «مُرْضِع» !

رأيت «العَذْراءَ» قد وضعت يدَها على «موضع العِفّةِ منها» ؛ فعلمت أنها ما زالت بكرا !!

عجبَ الناس وقالوا : يالك من ذكى !!

فإذا هى حَيّةٌ !

نظر إياس ذات يوم، وهو بمدينة واسط إلى حجرين بالأرض ، وأطال النظرَ ، فلما سُئلَ قال : إن بين هذين الحجرين دابّة !

فنزعوا أحدَهما من الأرضِ ؛ فإذا تحتَه حيةٌ منطوية !

فعجبوا من أمره ، وسألوه عن ذلك ، فقال :

رأيت ما بين الحجرين «نَديًا» (مبتلاً) ما عدا بقية الحجارة !

فعلمت أن بينهما شيئا يتنفس !

كلب غريب !

كان إياس ذاتَ يوم فى مجلسٍ فترامى إلى سمعِه أصواتُ كلابٍ عاوية نابحة !

فقال : أسمع صوتَ كلبٍ غريب !

عجبَ الناسُ وقالُوا : كيفَ عرفتَ ذلك ؟!

قال : بخضوعِ صوتهِ ، وشدة نُباح غيرهِ من الكلاب !

فأسرع السامعون إلى مصدر الصوت والنُّباح ، ليكشفوا عن ذلك ، وليروا بأنفسهم حقيقة ما قاله إياس !

وكم كانت دهشتهم عندما رأوا كلبا غريبا مربوطا، وكلابُ الحَىّ تَنْبَحُهُ !

وعندئذ قالوا : كم أنت ذكى يا إياس !

وقال بعضهم لبعض :

ياليت لنا مثل ما أوتى إياس من فطنة وذكاء !

فى هذا الصّدْع دابّة !

كان إياس يمشى فى مناكب الأرض [1] ينظرُ ويتأمل بعين بصيرة ! ونظر يوما إلى صَدْعٍ «شقٍّ» فى الأرض ، فقال : فى هذا الصدع دابة !

وكان إياس مُصَدَّقًا عندهم ، فنظروا فإذا فيه دابة !

فلما سألوه عن سر ذلك قال :

إن الأرض لا تصدع إلا من دابة أو نبات !

«قال الجاحظ : إذا نظر الإنسان إلى مَوضع مُنْفَتح فى أرض مستوية ، فَلْيَتَأَمَّله فإن رآه ينصدعُ فى تهيل علم أنها كمأةً «فُطْر من الفصيلة الكمئية» . وإن خلط فى التصدع والحركة علم أنها دابة» .

يبحث عن ماء !

كان إياس يوما فى بَرِّية «صحراء» ، ومعه من يرافقه من مُحبّيه ، فاشتد بهم العطش ، ولم يجدوا ماء !

وبينما هم يبحثون عن الماء ، إذ سمع إياس نُباح كلب فقال :

هذا الكلب ينبح على رأس بئر !

---

(١) مناكب الأرض : نواحيها ، جمع منْكِب ، وهو ناحية كل شئ ، وما ارتفع من الأرض .

فاتجهوا إلى مصدر الصوت لمعرفة مدى صحة ما قاله إياس ، فوجدوا الأمر كما قال .

ولما سألوه عن ذلك قال :

لأنى سمعت الصوت كالذى يخرج من بئر !

فعجبوا من ذكائه ، وقال بعضهم لبعض :

ياليت لنا مثل ما أوتى إياس ، إنه لذو حظ عظيم من الذكاء!

من ذكائه فى القضاء !

كان إياسُ بنُ معاويةَ بن قُرّة صادق الظنِّ ، لطيفًا فى الأمور، وتولّى قضاء البصرة فى أيام عمرَ بن عبد العزيز .

واختصم إليه رجلان فى مُطْرَف خَزٍّ، وأَنْبجَانِى [1]

فادّعى كل منهما «المطرفَ الخزّ» أَنّه له ! ، وأن الأَنْبَجَانِىّ للآخر !

تُرَى ماذا فعل إياس ؟

دعا بمُشْطين وماء ، فبلّ رأسَ كُلِّ واحدٍ منهما ، ثم قال : لكل منهما : سَرّح رأسَك !

فخرج فى مُشْط أحدهما «غُفْرُ [2] الأَنْبجانىّ» .

وهنا قال إياس للآخر : يا خبيث ؛ الأنبجانى لك ، وأمر فدفع المطرف إلى صاحبه بعد أن رأى غفرمطرفه في مشطه!

---

(١) المَطْرف -بضم الميم وسكون الطاء وفتح الراء - الثوب ، والخز : ماينسج من الصوف والإبريسم (الحرير) .

والأنبجاني : ثوب من الكتّان ونحوه أقل ثمنا من مطرف الخز .

(٢) الغُفر : الزئبر الذي يتطاير من الثوب ويثور أشبه بالغبار .

استودعَ رجلٌ مالاً عند آخر ؛ فَلَمَّا طَلَبَه مِنْهُ أَنكَرَهُ وجَحَدَه ، فخَاصَمه إلى القاضى إياس !

وقال المُدّعِى : إنى أُطَالِبهُ بما أَوْدَعْتُه إيّاه ، وقدرُه كذا ، وكذا .

فقال له إياس ؟ ومن حضَرك ؟

قال : كان ربّ العزةِ حاضرًا !!

قال : فدَفَعْتَه إليه فى أى مكان ؟

قال : فى موضع كذا .

قال : فأى شىءٍ تَعْهَدُه من ذلك الموضع ؟

قال : شجرة عظيمة .

فسأل المدّعَى عليه ، فقال : لا علم لى بتلك الشجرة ، ولا بذلك المكان !

قال إياس للمدّعِى : انطلق إلى الموضع ، وانظر الشجرة لعل الله يُظهرُ لك علامةً يتبين بها حقّك ، أو لعلك دفنتَ مالك تحت الشَجرة فنسيت فتذكره إذا رأيت الشجرة ! فمضى الرجل مسرعا كما أمره القاضى !

وقال إياس للمدّعَى عليه :

اجلس هنا حتى يعود خَصْمُك !

فجلس الرجل ، وأخذ إياس يَقْضِى بين الناس ، وفجأة نظر إياس إليه وقال :

يا هذا ، أترى صاحبَك بَلغَ موضعَ الشجرة التى ذكرها ؟!

فقال الرجل : لا ؛ إنه لم يَصلْ إليها بَعْد!

وهنا قال إياس له : والله يا عدوّ الله إنك لخائن!

فقال : أَقلنى ، أقالك الله [1] !

فقال إياس : انتظر حتى يعودَ خصمُك !

فلما رجع قال له إياس :

قد أقر بحقك ، فخذه [2] !

≡III انْصَرِفْ واكتُم أمرَك !

حكى ابن الجَوْزِىّ فى الأَذكياء قال :

أخبرنا أبو الحسن القَيْسِىّ قال : استودعَ رجلٌ رجلاً من أبناءِ الناسِ مالاً ، وكان أميناً لا بأسَ به !

وخرج المستودعُ إلى مكة ، فلما رجَع طلبَ مالَه ممّن أودعه إياه ، فأنكره وجَحَدَه !

فأتى صاحبُ المال إياساً ، وعرض الأمرَ عليه ، فقال له إياس : هل علم صاحبُك أنك أَتَيْتَنى ؟

قال : لا .

قال : هل نازعتَه المالَ عِنْدَ أحدٍ ؟

قال : لا عِلْمَ لأحدٍ بهذا .

قال : فانصرِفْ ، واكتُم أمرَك ، ثم عُدْ إلىّ بعد يومين

---

(١) أقلني : سامحني ، واعف عني ، وتجاوز عن ذنبي . وخذ بيدي من هذه العثرة .

(٢) نثر الدر للوزير الكاتب منصور بن الحسين الآبي (١٠٨/٤) والمحاسن والمساوئ (٢١٣/١) ، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى٧٧ .

فمضى الرجلُ على أملِ أن يَجد له إياسٌ حلاًّ لماله الضائع !

أما إياس ، فقد أرسلَ إلى خَصْمه ، وقال له : لقد حضر عندى مالٌ كثير ، وأريد أن أسَلّمَهُ إليك .. أفحَصِينٌ منزلك ؟

قال الرجلُ : نعم .

قال : فأعدّ مَوْضِعاً للمال ، وقوماً يحملونه .

فقال : سمعا وطاعة ، وتَوَجَّه إلى منزِله ليُهَيِّئَه لاستقبال تلك الأموال .

وكان الرجلُ صاحبُ الوديعةِ قد عادَ إلى إياس ، فقال له إياس انطلقْ إلى صاحبك ، فاطْلُب مالَك ، فإن أعطاكَ فهو المطلوب ، وإلاَّ فقل له : إنى سوفَ أُخْبِرُ القاضى بما كان منك!

فأتى الرجلُ صاحبَه ، فقال له : لستُ أذكرُ أنك أَوْدَعتنى مالاً ، فقال : الرجل : أَعْطِنِى وَدِيعتى ، وإلاّ شكَوْتُك إلى القاضى ، وأخبرتُه بما كان منك من إنكارك لوديعتى !

وهنا قال الرجلُ : ذَكِّرنى بعلامة لها حتى أعاودَ البحث عنها ، فما أكثر مالدىّ من أماناتٍ ! ثم قال له : انتظر ، وتظاهر بالبحث عنها وأحضرها !

فعاد الرجل إلى إياس ، ومعه وديعتُه ، وما هى إلا دقائق حتى جاء صاحبنا إلى إياس ليخبرَه بأنه أعدّ المكانَ لا ستقبال ودائعه !

فلما رآه زجَره وانتهرَه ، وقال له : إليكَ عَنّى أيها الخائن !

لم رَدّ شهادة أحدهم ؟!

شهد رجلٌ من جُلَسَاءِ «الحسَن البصريّ» بشهادة عند «إياس ابن معاوية» فردّه ، ولم يقبل شهادته !

فشكا الرجلُ ذلك إلى الحسن ، فذهب الحسن إلى إياس وقال له :

يا أبا واثلة ؛ لِمَ رَدَدْت شهادَة فلان ؟

فقال : يا أبا سعيد ، إن الله - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

وليس فلان ممَّن أرضي!

بالرِّفاء والبنين !

أُتِى بعَدِيّ بن أرطاة - وهو يومئذ أميرٌ على البَصْرَة - وإياس ابن معاوية قاضَى البصرة يومئذ .

وكان عدىٌّ أَعرابىَّ الطَّبْع ، فقال : ياهَناه «يارجل»، أين أنت؟

قال : بينك وبين الحائط !

قال : فاسْمَعْ منِّى .

قال : للاستماع جَلَسْتُ .

قال : إنى تزوجتُ امرأةً .

قال : بالرِّفاءِ والبَنين [1] .

قال : وشَرَطْتُ لأهلِها أن لا أُخْرِجَها مِنْ بَيْنِهم !

---

(١) دعاء للمتزوج بالالتئام والاتفاق ، وجمع الشمل ، واستيلاد البنين ، وقد سوى الإسلام بين البنين والبنات .

قال : أوفِ لهم بالشَّرْطِ .

قال : أنا أريدُ الخُروجَ .

قال : فى حفظِ اللّهِ !

قال : فاقضِ بَيْنَنَا .

قال : قد فعلت .

قال : فعلى من قضيت ؟

قال : على ابن أُمّك !

آه لو علمتُ وأَنَا عِنْدَه !

خاصم رجلٌ رجلاً إلى «إياس بن معاوية» وهو قاضى البصرة فطلب منه البيّنة على مايَدّعيه ، فلم يأته بِمَقْنع [1].

فقيل له : استجرّ بوكيع بن حسّان والى خراسان حتى يشهدَ لك ، فإن إياساً لا يَجترئ على ردّ شهادته !

فذهب إلى وكيع ، واستجار به ، فقال وكيع : واللّه لأشهدَنّ لك ، فإن ردّ شهادتى لأعمّمَنّه بالسيف !

فلما رآه إياس فهم ما جاء من أجله ، فأقعده إلى جانبه ، ثم سأله عن حاجته ، فقال : جئت شاهدا !

فقال له إياس : يا أبا المطرف ؛ أتشهد كما تفعل الموالى والأعاجم ؟ أنت تِجلّ عن هذا [2] !

قال ابن حَسّان : إذًا واللّه لا أشهد !

---

(١) المقنع : مايرضي من الآراء ، والعدل يرضي بشهادته . (وهو بفتح الميم وسكون القاف) .

(٢) الذين يشهدون بغير علم ، ولم يكن أمام إياس إلاتلك الحيلة ليرد بها وكيعا ردًا غير مباشر حيث نفره من الشهادة بغير علم .

فلما عاد إلى خُراسان ، قالوا له :

خدعك إياس ! ، ولم يقبل شهادتك فردّك !

فقال : آه لو علمت وأنا عنده لَعَلَوْتُه بالقضيب [1] .

يا أبا حمزة ؛ أرنا موضعَ الهلال !

تراءى هلالَ شهر رمضان جماعة فيهم أنسُ بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقد قارب المائة !

فقال أنس : لقد رأيتُ الهلالَ .. هو ذاك ، وجعل يشير إليه، وهم يتأملون فلا يَرَوْنَه !

وهنا نظر إياس إلى أنس فإذا شعرة بيضاء من حاجبه قد انثنت !

فما كان من إياس إلا أن مسحها ، وسوّاها بحاجبه ، ثم قال له : يا أبا حمزة ! أرِنا موضعَ الهلال !

فجعل أنس ينظر هنا وهناك ، ويقول :

أين الهلال ؟ لم أعد أراه !

إياس واليهوديُّ !

سمع إياسُ بنُ معاويةَ ذاتَ يومٍ يهودياً يتطاولُ على المسلمين ويقول :

ما أحمقَ المسلمين !

إنهم يَزْعُمُونَ أَنَّ أهلَ الجَنة يأكلونَ ولا يُحْدِثُونَ (لا يَتَبولُون ولا يَتَغَوّطون) !!

---

[1] انظر نثر الدر للآبي جز ٤/١١٥ ، وتهذيب الكامل ١/٢٦٦.

فقال له إياس :

أَفَكُلّ ما تَأْكُله تُحْدِثُه ، وتتخلصُ منه ؟

قال اليهودىُّ : لا ، لأن الله تعالى يجعلهُ غِذَاءً !

وهنا قال إياس : يا هذا ؛ إن الذى يستطيعُ أن يجعلَ بعضَ الطعامِ غِذاءً قادرٌ على أن يجعله كُلّه غذاء !

فلماذا تنكرُ أَنّ الله تعالى يجعلُ كُلَّ ما يأكله أهلُ الجنة غذاء ؟!

فَبُهِت اليهودى ، وراح يبتلع ريقه بعد أن أسكته إياس بذكائه!

لكل جَوادٍ كبوة

روى عن إياس أنه قال :

ما غلبنى أحدٌ قط سوى رجل واحد !

وذلك أنى كنت فى مجلس القضاء بالبصرة ، فدخل على رجل شهد عندى أن البستان الفلانى - وذكر حدوده - هو ملك فلان !

فقلت له : كم عدد شجره ؟

فسكت ، ثم قال : منذ كم يحكم سيدنا القاضى فى هذا المجلس ؟

فقلت : منذ كذا !

فقال : كم عدد خشب سقفه ؟

فقلت : الحقّ معك ، وأجزت شهادته !

مسكين يتكلم بكلام الملوك

أَتَى إياسُ بنُ معاوية حَلْقةً من حَلْقَاتِ قريش ، في مسجد دمشق ، فاستولَى على المجلس « ببلاغته ، وفصاحة لسانه ، وجمال بيانه» !

ورأوه رَثّ الهيئة ، فاستهانُوا به !

فلما عرفوه ، اعتذروا إليه ، وقالوا :

الذنبُ بيننا وبينَك مَقْسُومٌ :

فإنك أتيتنا فى زى مِسكين ؛ تُكَلِّمُنَا بكلام الملوك !

إياس وعبد الملك بن مروان !

لما دخل «عبد الملك » البصرة ، رأى إياساً وهو صبى ، وخلفه أربعة من القراء أصحاب الطيالسة [1]، وإياس يتقدمهم ، فقال عبد الملك : أُفٍّ لهؤلاء القوم!؛ أما فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث؟!

ثم التفت إليه ، وقال : كم سنك ؟ فقال :

سنّى - أطال الله بقاءَ الأمير - سن أسامة بن زيد حين ولاّه رسولَ الله ﷺ جيشا فيهم أبو بكر وعُمَر !

فقال : تقدم ، بارك الله فيك ، وكان عمره سبع عشرة سنة حينذاك !

---

(١) جمع طيلسان وهو وشاح يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن «الشال» .

حُسْنُ تَخَلُّص !

أخذ الحكَم بنُ أيوب الثقفى عاملُ الحجاج - إياسَ بن معاوية فى ظِنةٍ [1] اتهم فيها بالتشيّع [2] للخوارج !

فأوسعه الحكم شتما ، ثم قال له : إيتنى بكفيل !

فقال اكفل أيها الأمير ؛ فما أحدٌ أعرفَ منك بى! قال : وما علمى بك ، وأنا من أهل الشام ، وأنت من أهل العراق ؟

فقال له إياس : ففيم هذه الشهادة منذ اليوم ؟

فضحك ؛ وخلّى سبيله !

لقد أخرسه إياس ، وكان جوابه من الأجوبة المسكتة !

وذلك عندما قال له الحكم :

وما علمي بك ، وأنا من أهل الشام ، وأنت من أهل العراق؟!

فكأنه قال له : ما دمت لا تعلم بي ، فكيف تحكم علىّ ؟!

وقد علمنا النبى ﷺ ألا نشهد أو نحكم إلا إذا علمنا مثل الشمس !

أتدرون أى ليلة هذه ؟

رأى إياس - فى المنام - فى العام الذى توفى فيه رؤيا عجيبة ، فَسّرها فكانت كما قال !

قال : رأيت كأنى وأبى على فرسين فجَرَيَا معاً ، فلم أسبقه ، ولم يسبقنى !

---

(١) ظنة : بكسر الظاء ونون بعدها مشددة : التهمة .

(٢) التشيع للخوارج : انتحال منهجهم ، والخوارج : الخارجون على السلطان .

وعاش أبى ستا وسبعين سنة ، وأنا فيها !

فلما كان آخر لياليه قال :

أتدرون أى ليلة هذه ؟

إنها ليلة أستكمل فيها عمر أبى !

ونام ، فأصبح ميتا ! «وكان ذلك سنة ١٢٢ هـ» [١] .

وكانت وفاة أبيه «معاوية» فى سنة ثمانين للهجرة [٢] ، رحمهما الله تعالى ؟

وأراك تقول فى نهاية اللقاء :

وإنما المرءُ حديثٌ بعدَه

فكُن حديثاً حَسناً لمن وعى

(١) جاء فى تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى : إياس بن معاوية بن قرة بن إياس المزني البصري القاضى المشهور بالذكاء ، ثقة من الخامسة مات سنة اثنتين وعشرين ومئة.

(٢) جاء فى ترجمة إياس فى وفيات الأعيان ، وكانت وفاة أبيه سنة ثمانين للهجرة .